الأسود في كل الجهات

حول رواية "الحرب في بر مصر"

بقلم سلوى النعيمي

ما هي هذه "الحرب في بر مصر" التي يتحدث عنها يوسف القعيد الان وقد اصبحت تاريخا. والزمن زمن السلام، زياراته ومباحثاته وابطاله ؟ حرب القعيد حرب اخرى لم تقم "في الحرب التي انهوها بالامس فقط كان العدو من الخلف ومن الامام. وكل رصاصة انطلقت في اتجاه سيناء السليبة كان لا بد ان تقابلها رصاصة اخرى الى الخلف. باتجاه مصر المقيدة والمحتلة بمحتل من نوع اخر بالفقر والتخلف والظلم" حرب القعيد ليست حربا على الحدود او على ما اصبح حدودا وانما في الداخل. "في بر مصر التي يسرى السرطان في جسمها".

يقول لنا القعيد هذا من خلال حكاية بسيطة: عمدة احدى قرى الوجه البحري في مصر، ممن عادت لهم امتيازاتهم في العهد "الانفتاحي" يريد لاشياء كثيرة يطول شرحها، ان يخلص ابنه الاصغر من اداء خدمة العلم. الحل؟ يجده شخص يلقبه الناس بالمتعهد فقد امضى حياته متعهدا حل مشاكل الناس (ولكل حل ثمنه طبعا). الحل اذن هو ان يذهب مصري، ابن احد الخفراء الذين يعملون عند العمدة صاحب المشكلة الى الجندية مكان ابن العمدة المدلل مقابل ان تبقى له قطعة ارض كانت للعمدة في الماضي ثم اعطتها قوانين الاصلاح الزراعي تاجيرا.. للخفير ثم عادت الان بموجب "حكم قضائي عادل" الى صاحبها العمدة الارض اذن ثمن لمصري.

لوضع هذا موضع التنفيذ، يرسم المتعهد مخططا عجيبا غريبا، غاية في الدقة والتماسك، وفعلا يذهب مصري لاداء خدمة العلم تحت اسم ابن العمدة. تقع حرب تشرين ويستشهد مصري. يطرح السؤال: من الذي استشهد في الحقيقة: مصري ابن الخفير ام ابن العمدة الذي حارب مصري تحت اسمه بعد سلسلة من "الاشكالات" تحل القضية قانونيا. وتعود للعمدة "حقوقه" كلها: ابتداء بالارض وانتهاء بتعويضات استشهاد "ابنه" ويقفل التحقيق وتعتبر الحكاية وكأنها لم تكن.

لا معقولية الحكاية تتوضح شيئا فشيئا. عبر جزئياتها المثيرة ونفهم تماما المتعهد عندما يقول: "عموما، زالت الغمة.. البلد سابت والكل يعمل ما يريده دون خوف.. نحن نمر بفرصة لن تتكرر المصريون احرار فعلا.." يبني يوسف القعيد تكنيك روايته: الشخصيات تروى لنا الحادثة بتسلسلها الزمني، كل شخصية تاخذ طرف الخيط من الاخرى لتصبح هي المسؤولة عن الحكاية، ولتتابع سرد الجزء الخاص بها في فصل كامل، موضحة دورها وملقية ضوءا على ادوار الاخرين، تتعاقب الشخصيات اذن واحدة بعد اخرى في فصول الرواية الستة: العمدة، المتعهد، الصديق، الخفير، الضابط، المحقق.

لا شخصية تطغى على الاخريات، او هذا هو المفروض على الاقل في هندسة الرواية: كميا الفصول متساوية في عدد صفحاتها تقريبا (بين ٢٢ و ٢٦ صفحة). وحده، الفصل الخاص بالصديق، يتميز بعدد صفحات (٣٢ صفحة) ربما لاننا نتعرف في هذا الفصل بشكل اوضح من الفصول الاخرى على شخصية مصري. فالصديق ينقل لنا وجهة نظر مصري وموقفه منذ البداية: قبوله ثم الوعي المتاخر والرغبة في اصلاح الخطأ، وفي النهاية استشهاده.

شخصيات الرواية نمطية في البداية، لكن هذه النمطية تتكسر عند خصوصية اللغة، لكل شخصية لغتها: مفردات وتعابير وصياغة، ومن خلالها يتوضح لنا دورها في الرواية، وجهة نظرها، موقفها من العالم.

فالعمدة مثلا يحب بر مصر وعبادة وادي النيل تجرى في دمه لكن هذا لم يمنعه من تهريب اولاده الاربعة من اداء الخدمة العسكرية. انه خائف على شجرة العائلة وليس من حقه ان يعبث بها "لو ذهب احد منا الى الجهادية لاهتزت شجرة العائلة وتقوست واقتربت من الارض ولما كان عمر هذه الشجرة يعود الى زمن المماليك والاتراك في مصر.. ان مصر وخيراتها لهم وحدهم "الاكابر. ابناء الناس" وعلى "ابناء الكلب" ان يحموها ويدافعوا عنها، ان يزرعوا الاراضي و يديروا المصانع. لقد عادت اليه الارض التي اخذوها منه سنة اربع وخمسين وكسر عين اولاد الكلب (ص ٨): عادت الارض وعادت معها الحياة.

العمدة عاجز جنسيا وعجزه هذا يغطي عجزا اخر تاريخيا، انه يتوافق زمنيا مع "حركة الجيش" التي لم تاخذ "منهم الارض والجاه والسلطان فقط" "بالعكس هناك ست عشرة سنة سقطت من العمر كان من الممكن ان تفعل فيها الكثير لمصرنا العزيزة الغالية". خلال ستة عشر عاما من حكم عبد الناصر "شل هؤلاء المستغلون، لكن المماطلة اللاثورية وانصاف الحلول والاخطاء سهلت لمن جاؤوا بعدها انتزاع المكاسب من اصحابها واهل الحق فيها، وعودة اناس، مثل العمدة، الى الحياة والمجتمع.

يبقى الفصل الخاص بالمتعهد من اكمل فصول الرواية. واكثرها درامية. فاذا كانت مشكلة العمدة الشخصية، الجنسية اساسا، تمنحه تميزه الدرامي.. فان لشخصية المتعهد ميزتين: المشكلة الشخصية حرمانه من التدريس "من يوم حرماني من قول كلمتي: قيام جلوس وانا مثل النخلة العاقة. او الرجل العاجز" والموهبة "انا فارس، الذهن اليقظ والتفكير الحاد. والقدرة على حل اعقد المشاكل" انه يملك منطقا خاصا به، سلسلة من التبريرات. اللغطية الغريبة التي يمكن ان "تفلسف" كل شيء لكن قدراته الخارقة هذه تبقى عاجزة امام مشكلته هو. انها الجرح المفتوح والحلم اليومي الذي يقلل من بؤس حياته كلما اغمض عينيه: العودة الى التدريس، بعد ان تقدم له الاعتذارات طبعا.

اما "الخفير" ابو مصري فهو من الناس الذين خلقوا لكي ينكفئوا على الناس العمر كله. "نموت والقدم مغروس في الطين والظهر قد تقوس من كثرة الانحناء. العمر كله انحناء". انه يقبل مبادلة ابنه مصري بالارض دون ان يرفع راسه ويخسر في النهاية الاثنين معا دون ان يرفع رأسه.

الضابط والمحقق والضابط المناوب والصديق شباب متحمسون، بدرجة او باخرى. ولكنهم عاجزون. يحاولون ان يتصرفوا ولكنهم يتراجعون امام الضغوط الخارجية باختلاف انواعها.

لا تبرز واضحة من خلال الرواية، يبقون خطوطا عريضة، وحده وجه مصري. ابن الخفير. يطل علينا من خلال فصول الرواية كلها. الجميع يتحدثون عنه بشكل مباشر او غير مباشر. اننا لا نراه الا من خلال الاخرين. كان منطقيا، في بنية الرواية، ان يتابع مصري الحكاية من حيث انتهى ابوه منها. في اللحظة التي كانت عليه هو ان يتخذ القرار. ولكنه عندما قال نعم لمخطط العمدة كان قد قبل ان يموت. وعلى الاصح: الا "يوجد ابدا. لقد قال نعم وبذلك حكم على نفسه بالاعدام، وشهادة الوفاة المزورة التي اخرجت باسمه كانت شهادة وفاة حقيقية. ولذا فان موته، عندما استشهد في الحرب لم يعد ملكا له. ضاع. عليه اسمه وجثمانه. وقبره. وحتى تعويض استشهاده (قبضه العمدة طبعا)..

قدم مصري نفسه ثمنا للارض فخسر الاثنين معا.. لم يعلم ان وصوله الى الارض لا يمكن ان يكون عبر التنكر لهويته الطبقية ومهادنة اعدائها.. بل بعد وعيه لهذه الهوية ونضاله من اجل مصالحها.

بعدم تخصيصه فصلا لشخصية مصري — عزت القعيد كيف يوظف بناء الرواية الهندسي كي يكون جزءا من الحكاية نفسها. ومن هذا التداخل التام بين الشكل والمضمون ياتي ذكاء الرواية ومتانة بنيتها في ما تريد اساسا قوله: كل تنازل هزيمة وكل مهادنة موت...

في الرواية يتحد العام بالخاص. الفرد بالمجتمع دون تكلف او تعسف وربما كان لاختيار القعيد للزاوية التي يحكي من خلالها الحكاية: التجنيد، اثر كبير في هذا التلاحم العضوي.

برغم المرارة والغضب (بسببهما ربما). المصري يوسف القعيد "دمه خفيف" وخفة الدم هذه ليست خارجية على الرواية انها في بنيتها الاساسية، في موضوعها، في عرض شخصياتها، في اسلوبها ولغتها. ولكنها لا تضحكنا وانما تجعلنا نبتسم تلك الابتسامة الصفراء التي تميل الفم وتعطي الوجه تعبيرا اقرب الى البكاء..

لا الوان في لوحة القعيد، حول موضوعه الرئيس ينسج شبكة مكثفة من الجزئيات التي تتلاقى خطوطا وظلالا كي تزيد اللوحة عتمة وقتامة.

انه الاسود في كل الجهات.

تعلو الصرخة سؤالا: ولكن ما الذي يحدث في بر مصر؟؟

لقطة

"الواقعية الاشتراكية" لا تعني ابدا — كما يعتقد البعض — التصوير الفوتوغرافي للواقع... ولو كان الامر كذلك، فان الكاميرا خير من يقوم بهذه المهمة... ان مفهوم "الواقعية الاشتراكية" ابعد ما يكون عن هذا الفهم المبتذل بل هي تعني مواكبة الادب للواقع في تطوره الثوري. وابراز عناصر التثوير على هذا الواقع، مع العلم بان التصوير — احيانا — يقوم بهذه المهمة ولو على نطاق محدود...

ونظرة بسيطة على "الواقعية الاشتراكية" توضح لنا الموضوع بدقة.. فلو اخذنا على سبيل المثال قصة الكاتب السوفيتي المعروف "ميخائيل شولوخوف" عالم الحقد".. فهي تتحدث عن ضابط سوفيتي خاض الحرب "الحرب الوطنية العظمى" وهو لم يكن يعرف بعد طبيعة العدو الفاشي، ومن خلال الاحداث يدفع شولوخوف بطله الى التعرف على وحشية النازيين والى النتيجة الطبيعية وهي الحقد على هذا العدو. شولوخوف هنا لم يصور الواقع بل نجح في الوصول الى اعماق الانسان السوفيتي في تلك الفترة واعطاه عنصر التثوير على ذلك الواقع.

ورواية غسان كنفاني "رجال في الشمس" هي ايضا تنطلق من "الواقعية الاشتراكية"، فهو عندما يقتل ابطال روايته في الخزان كانه يقول لنا بان الكويت / الهجرة ليست هي الحل..

وهناك امثلة عديدة اميل حبيبي في روائعه "المتشائل" و"لكع" و"الطاهر وطار في "اللاز" "والام الثانية" للكاتب الفلسطيني حكيم تيولون... وكثير غيرهم.

اسامة محيسن العيسة

الجديد

صدر مع بداية الاسبوع الحالي في حيفا عدد جديد من مجلة "الجديد" لتختتم بذلك عامها التاسع والعشرين وتستعد الجديد للدخول في العقد الرابع من عمرها النضالي المديد.

وقد شارك في تحرير العدد. د. اميل توما - سلمان ناطور، نجوى مخول، نبيه القاسم

وتضمن العدد كذلك مقابلة مع الشاعر عز الدين المناصرة ووقائع امسية نقدية حول حكاية الكاتب اميل حبيبي "لكع بن لكع" وتعقيب على دراسة اميل توما حول التراث الدرزي. ومراجعة لديوان الشاعرة سهام داود "هكذا اغني" وقصائد اخرى ومراجعات لبعض الدراسات والكتب.

سببية

شعر: د. سالم أبو عيسى

لانك مثلما انت
لانك دائما انت
لانك — رغم كل تجردي — انت
اجيء اليك مصبوغا بلون تمزق الافق
لانك دائما عصفورة
عبرت حدود السّبي والرق
كندف الثلج آتيك
كندف الثلج محمولا على البرق

• • •

لانك رغم كل تجردي المشحون
بالوهم
تظللين العلاد،
ومذبح الرؤيا،
تظللين ارتعاش الخاطر
المكبوت في الحلم
امدّ يدا مملوءة الشّاء
تعانق جرحك المحموم بالالم

• • •

لانك دائما تبقين مل ء دمي
شموسا، تدفن الماضي
وتنبت من تراب النفي
الهة حقيقية
تحرّم عادة النسيان
ساملأ جعبتي شوكا
واحجارا مدمّاة، وانسى
عمرى المصبوغ بالاحزان
لانك مثلما انت
لانك دائما انت
سا غرس في تراب جبينك المحروق
سنبلة، واصنع من جذور السرو
نجمات خماسية
اقدمها لاطفال هنا انتحروا
لكي تبقين..
واهديها لاطفال غدا آتون
باثواب ربيعية
لانك دائما انت
لانك دائما انت..

خواطر للتهامي

(٦) م منصور

عاشق الخصب لا يموت

دخان كثيف يملأ غرفة الصغيرة تاركا مع الشعاع الاصفر النابع من السراج خرائط وخطوطا تصلح لان يقرأ طالعه فيها والادرى بهذا الطالع.. لقد مر عليه حتى الان ستة شهور وهو يبحث كل يوم عن وظيفة حتى بدا حذاؤه ينزكل يوم من ذاك السائل الاسود يدل على امتزاج الماء المتسرب من حذائه الى اصابع رجليه مع حبات الوسخ التي تجمعت بين تلك الاصابع واكثر ما يضايقه تسرب تلك الرائحة الكريهة الى انفه بعد خلع حذائه.

... كل يوم يخرج في الصباح الباكر باحثا عن وظيفة، ويكون الجواب دائما معروفا مسبقا.. "لا يمكن اقبل صاحب سوابق موظفا عندي"

— ولكني لم اسرق ولم اقتل احدا ولكني...

— لا يهم.. فكلها سوابق.

— ان كنتم انتم لا تريدون وظيفة؟.. فهل تظن بان "اولاد الحلال" سيوظفوني؟

— انني اشعر معك، ولكني لا يمكنني ان افعل شيئا.

— شعورك هذا اعطاني رغبة الحياة لهذا اليوم، شكرا!.

كل يوم نفس الاسطوانة التي تذكرني باشياء كثيرة كنت قد بدأت انساها.. تذكرني "بالتمام" (١) الممل، ثلاث مرات يوميا، وبسمة ترسم على شفتي برغم الالم من هذا التكرار.. نفس البسمة وذات الالم اشعر به اليوم امام كل من يقابلني ليعطيني تلك الجمل التي حفظتها عن ظهر قلب.. هناك كبير بين الواقف امامي اليوم والذي كنت اقف امامه قبل ستة شهور، نفس القسمات. ونفس اللهجة بغض النظر عن اللغة المختلفة بينهما، وهذا تميزه البسمة التي ترافقه دائما وهو يحدثني عن اعداده. واما انا فكانت علامات. الحقد والكره تسيطر عليه.. نعم.. نعم.. هناك شبه كبير.. وجهان. لعملة واحدة وعلي ان امحو الصورتين.. بايهما ابدا.. الصورة الاولى او الثانية... آه.. لقد عرفت الاولى وبعدها سيكون الخيط آت.

• × • × •

(١) "التمام": هو اصطلاح معروف في السجن يعني تعداد السجناء اليومي.

إضاءة

علي عثمان

شتان. ما بين اليوم والامس القريب، شتان. ما بين الحزب الوطني الذي اسسه مصطفى كامل بالامس القريب والحزب الذي اسسه السادات باسم (الحزب الوطني الجديد).

مصطفى كامل... كان يعمل وحزبه من اجل جلاء المستعمر الانجليزي.. ومن اجل الدستور.. حركة تحرر وطني جراة ووطنية لا تظهر لهما.. نفسه لمصر وضد اعداء مصر.

والسادات وحزبه الجديد يفتح للاستعمار.. ويكمم الافواه ويعيد الادهان. ذكريات. اسماعيل وعباس. وبطرس غالي... ومن الاقدار ان نسمع ببطرس غالي جديد في ايام السادات شبيه ببطرس غالي في ايام عباس.. ولكن كان مصير اولئك الذين وقفوا في كفاح الشعب في الماضي.. سجل لهم التاريخ من الصفحات شتان ما بين الثرى والثريا.